# الجزء السادس

## الرسائل 9-10

أختي الحبيبة رجاء،

أنت تعلمين أن بابا حضر عندنا.. وتعلمين النفسية المعقدة التي يشعرها في أنه أصبح عالة على أولاده.. انه يظن نفسه شابا ويكره الركون الى الدعة والهدوء، ولا بد من عمل يشغله والاّ عاد الى فلسطين حيث يجد جوا أكثر ملاءمة له.. ولقد خطر لبالي أن أرضي هذه النزعات في نفسه فيطمئن أنه يقدم شيئا للحياة، وأنه لا يزال قادرا على كسب معيشته بدل أن يكون عالة على أولاده..

لقد اشتريت له أدوات الرسم الزيتي وأعددت له القماش وأهبت به أن يصنع لنا لوحات لتجميل المنزل.. وحدثته عن الأثمان الخيالية التي تباع بها اللوحات الناجحة لأغريه على العمل ولأوهمه أننا نبيعها له فلا يجرح إحساسه أننا ننفق عليه.. فليس من الممكن أن نرضي كبرياءه بتسليمه نفقات المنزل، والاّ هوينا اليوم كما هوينا بالأمس لسوء إدارته المالية..

لقد طرب للفكرة بادئ الأمر.. ولكنه ما كاد ينهي اللوحة الأولى وأنا أشجعه حتى شعرت كما شعر هو بأنه نضب.. لقد صوح الردى بموهبته الفنية بعد أن مضها الهجر الطويل..

وراح عند المساء ينفث دخان النارجيلة في الشرفة الغربية، وأنا بجانبه أنسج الصوف ونتحدث.. وعرائس الماء من بعيد تتلألأ بتيجانها الفضية وهي تمخر عباب البحر وئيدة.. وتطرقنا الى الحديث عن والد أحمد.. هذا الرجل النبيل الكبير القلب الذي لذّع فؤاده أن نناثر العقد النضيد الذي نظمه لنا يوما بعد يوم وعاما بعد عام منذ كنت صغيرة.. وما زال ووالدي صديقين كعهدهما من ود وولاء.. تأوه بابا وقال:

- ايه! الوردة تنبت الشوكة.. وأجبته أحاول انصاف الفتى:

- كلا يا بابا.. انه رجل ووحيد، وما كان له أن ينتظرني أكثر مما انتظر.. ما أستغرب أبدا تصرفه.. رمقني والدي دهشا:

- أراد الله انقاذك يا بنية.. لقد هوى الى القاع بعد زواجه وأصبح مضغة الأفواه.. انه ما يعود الاّ حين يمضي الليل، وينحدر الى أسوأ العادات..

وعصر قلبي الألم والرثاء له.. ربما وجدت له عذرا في مسلكه، فأنا أفهم وأعذر أما فيما يسيء به الى نفسه وكرامته فأنا لا أفهم ولا أعذر.. ووددت لو أهتف به: "حرام ما تبدد من شبابك سدى! لنفرض أنك لم تسعد في زواجك فهذا ذنبك اذ لم تحسن انتخاب من تلائمك وخدعت بالبهرج والزائف وأنت الفطن الأريب.. وكان عليك أن تصعد ميولك بدل أن تسف بها.. فهل نسيت ما كنت تعاهد النفس عليه من أجل وطنك المضاع وأرضك التي اقتلعت منها وأصبحت بلا جذور.. لو فعلت لآمنت أنك رجل وغمر روحي الإحترام والتقدير لك حتى لو نضب من قلبي الوداد..

لم تنته ذيول القصة يارجاء وقد ظننتها انتهت!..

كنت في غرفة المعلمات، وقد اعتصبنا حول الطاولة نلعب لعبة "الحقيقة والنتيجة" وأنا أدير القلم فيشير برأسه الي وتجلجل الضحكات ويتهيأن لإحراجي بالأسئلة كما أحرجهن..

وتدخل الناظرة وتسلّمني رسالة مسجلة.. وانهالت علي الأسئلة..

- ممن الرسالة؟
- ما تتضمن؟
- أهو عاشق؟ ابتسمت وقلت:
- حسبكن! هل يبعث عاشق برسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة؟

ولكني ما كدت أفتحها حتى أذهل ويتلون وجهي.. ممن تظنينها يارجاء؟ كانت من أحمد.. انه يستغفرني عما سببه لي من آلام.. ويهيب بي أن أعود اليه ليوسد قلبه الحزين اللاهب للحنان صدري فيستعيد انسانيته التي فقدها.. انه يعتقد بأنني لا أزال أحن اليه، ويعتقد أنني أستطيع أن أجعل منه بحنانني انسانا طيبا.. وصرح بأنه مستعد للتخلص من كل العقبات التي تعترض سبيلنا.. ويهتف بي وبالماضي السعيد أن لا أتخلى عنه في محنته.. فانه شقي وحزنه صميم.. ثم ينغر صدره ويحملني تبعة ما حدث.. كان يائسا ضائعا

وأوهموه أنها تشبهني، فصدمه الواقع وما كانت الأمور لتجري هذا المجرى لو أنني رضيت أن أبقى في فلسطين!

وانتبذت ناحية، باسرة الوجه تتنازعني مختلف العواطف.. انه مجنون أنانى سادر في غلوائه مفرط في وهمه.. وغلبني السخط عليه وقد احتفـز ذهنـي لأكتب له رسالة، وما عاد ضجيج المعلمات اللواتي يردن منـي أن أكمـل اللعبة ليعلو على العاصفة التي تمور في صدري..

"سعيدة أنا أنك تشقى، فهذا أقل ما تستطيع التكفير به عن حماقتك.. فما كان لمثلك أن يهوي من حالق..

أين منك مثلي الأعلى الذي توهمت وأعددت لأربط به مصيري؟ كان وهمـا في خيالي..

كيف بالله تصلح ما أفسدت؟ ألأكون لك زوجة ثانية، أو لتدمر سعادة أخرى؟ لا بالله، انه فراق أبدي بيني وبينك! عش وحيدا ان شئت.. قاس وتعذب، ولا يبلغ بك الغرور أن تستهوي ثانية قلبي، فما عدت لك ولم تعد لي..

قاس وتعذّب أيتها الأماني الخائبة فلسوف تبلغها بين كؤوسك حلم مجنون، أما أنا فليست أماني كسيحة..

من قال لك أنني لا أتعذب؟ قسوة أنا لفرط عذابي.. وحشة أنا علـى قمـة.. ظمأ أنا آنف مورد السفوح، أما أنت فثق أنك لن تستوحش ولن تظمـأ فلـم تتعذب؟

أوهمتني فصدقت أنك رجل أحلامي.. لم فعلت؟ لم جاهدت كي تكسبني؟ لولا ذاك لما حلّقت ولا هويت.. ولا عناني أمرك فـي شـيء.. فمتـى تعلمـت الخداع؟.. لقد كانت مهارتك العظمى الصدق البسيط، ومزيتك ارادة واعية، فمتى نسيت مهارتك وفقدت مزيتك؟

أما اليوم فلقد تسمم الحب العظيم الذي حملته لك، وسألت أوردتي وشراييني أما نضبت فيها الدماء التي نبضت يوما بحبك؟

آه للحظات أذكرك لا يغتاظ غيظي أنني نذرت حبي لمن هو غير جدير به..

كان من أحببت رجلا يحمل بين جنبيه مبدأ ساميا وقلبا شـريفا.. كـان لـه مظهرك، ولكن وا أسفاه كانت روحه من إبداع خيالي!

أغفر لك كل إساءة نحوي، وأغفر لك الدموع التي سكبتها من أجلك.. والمثل الأعلى للرجولة التي حطمتها لي، فالزمن الحكيم يحول آلامي الى فـضائل أعتز بها.. أما ما أسأت به نحو نفسك، فهل أستطيع أن أغفره لك؟

أغفر لك.. فما من شأن قلبي أن يمسك لأحد غلاّ، انني أغفر وأنسى.. أنسى الإساءة والمسيء!..

قرأت الرسالة ولكنني عدلت أخيرا.. وبدل أن أرسلها اليه بعثت بها اليـك.. انها مشاعر تختلج في نفس الكريم ولكنه لا يفوه بها.. وخير منهـا صـمت رهيب!..

ما أسرع ما تندمل الجراح فلا تنز وتجف العبرات فلا تبض.. ما أسرع مـا يعود القلب وقد سلّحته قوى جديدة صاغها الألم مرهفة الحد!..

سلمى

* * *

حبيبتي رجاء،

كيف مرت السويعات لست أدري!.. انثنيت وشوقي اليك هيمان لم تنقع غلته.. لم أستمتع بلقياك كما كنت أشتهي أنفض اليك وتنفضين الـي خبيئـة نفسك..

أية أحاسيس من السعادة كانت تعمرقلبي والسيارة تنهب بي وبزميلاتـي المدرسات الأرض الى دمشق.. يالها من رحلة بديعـة صـاخبة بالـضحك والغناء..

استطير قلبي فرحا للقيا ولذع عند الفراق، ولكنه تزود بالإطمئنان عنك، وفي هذا ما يكفيني.. أخبرني الدكتور أن صحتك قد أحرزت أولـى انتـصاراتها الباهرة، وحاصرت العلة وأخمدتها، ومنعتها من التقدم.. فلتثابري يا أختاه علـى راحتك الجسدية والفكرية وعلى تغذيتك، ولتنشلي نفسك من مجاري مـن حولـك الضيقة وما يسببونه لك من إزعاج، ولتسبحي في خضم نفسك الكبيرة، وما بـين

يديك من كتب.. لا تتصوري نفسك أسيرة، ولا توحي لخيالك بهذه القيود الموهومة فتزول عنك وطأة الملل..

ما أزال أذكرك بعينيك اللاهبتين المخضلتين قرب السرير وأنـا أشـدك الـى صدري وأحمل اليك قبلات العائلة، والنظرة الأسية التي لاحت فيهمـا اذ انثالـت الكثيرات الى الغرفة يسلّمن علي.. ماذا همست لسعاد حينذاك؟ ان سلمى ليست لي وحدي.. انها للجميع!

ولا أزال أتمثل تلك اللوحة التي وضعتها قبالتك وقد كتب عليها بخطك الجميل بحروف كبيرة تلك العبارة التي قبستها وجعلتها رمزا لذلك الأسبوع..

" قضبان السجن تنقلب أوتار قيثارة لمن يعرف أن يبث في الجماد حياة"

وتلك الصورة التي تضمني وإياك والتي كبرها لك الطبيب ولا يزال عليهـا أثـر قبلات تتحدث بشفا خرساء بما فيه الكفاية.. بالله يا أختاه لا تحـدري دمـوعي!.. أنت التي تبعث في القوة لأسمو على نفسي.. كم أتمنـى لـو أكـون حقـا كمـا تتصوريني! وكم يتملّكني الخجل أن أنكشف لك بشرا بكل ضعفه وعيوبه..

تحدثت مليا والطبيب عنك، ونحن نرشف القهوة في غرفة الإسـتقبال.. انـه يرعاك ولو من بعيد، وأعظم شاغل له أمر صـحتك.. لقـد تعارضـت مـرتين مصلحته والبقاء في المصح، فعز عليه أن يخلفك وحيدة فاختار البقاء.. ألا تـرين في هذا ما يسرك؟

لقد أخبرني الدكتور أيضا أن جسمك يحتاج لطاقة كبرى في دفاعه فهو الـى الى المعركة التي يخوضها للشفاء، يبذل جهدا كبيرا لنموه الجـسدي والفكـري.. فزوديه يا رجاء، بكل ما يجعل مهمته أيسر في أن تنظري الى الأمور من ناحيتها المشرقة.. لا يؤلمك شيء يا حبيبتي، بل خذي من كل ما يزعجك فـي الماضـي مسلاة، وضعي نصب عينيك دائما أن صحتك هي مفتاح سعادتك..

سلمى

* * *